الفصل الثَّامن

تلمَّس "ياسين" الخُطى, يصعد الدَّرج المؤدي إلى السَّطح, إلى حجرتيه البائستين تنتظران أوبته, بعدما أنهى مهامه النِّهارية بالقصر. منذ ظهور الشَّبح مرتين, متخفيًا في هيئة الشُّرطي, والقلق والخوف يعصفان به. جعله هذا الظُّهور الغير متوقع يكره القصر أكثر ممَّا يكره, وأوقد من تحته نارًا كي ينفض يديه من هذه المهمة الثَّقيلة, ويترك خدمة القصر, ويبيع هاتين الحجرتين, ويعود أدراجه إلى موطنه, قريته الصَّغيرة بقلب الدِّلتا, يفتح دكانًا صغيرًا للبقالة, ويعيش ما بقي له من أيام.

وصل أخيرًا, الآلام في ركبتيه حادة لا تطاق, الرُّوماتيزم ينهشه مؤخرًا. الحجرة غارقة في الظَّلام, يكبس مفتاح النُّور؛ تتوهج الحجرة. كم يريحه الضَّوء ويُمسِّد الطِّمأنينة على قلبه, الظُّلمة دائمًا ما تثير هواجسه, وخاصة عندما تأكد من ارتباط الأشباح بها.

سينام في النُّور, لينام ملء عينيه, لن يُظلم مكانًا هو فيه قط.

الصُّورة على الحائط عكست أضواء المصباح, لشابة فائقة الجمال, عيناها ممتلئتان بهجة, وجهها صبوح بشوش, يشع نورًا من ذاته, يُحاكي نور المصباح المنعكس عليها. الصُّورة لابنته "طاهرة"!

وغامت عيناه, وذهب بالبعيد. تخطى الزَّمان والمكان, ورجع القهقري, القهقري لزمن فات وانصرم!!

"ياسين" أصغر سنًا, مُنتصبًا كما رمح, بوجه نحاسي وجسد سامق, يُلمِّع زجاج شرفات القصر. تطل من جواره بين فينة وأخرى شابة في مقتبل العمر, غضة جميلة, تناوله قطعًا من القماش الأبيض النَّظيف, ليجفف الزُّجاج من

أثر الماء. "طاهرة" ابنة "ياسين" الخادم, في ملامحها طيف شفيف من روح أبيها, وإن كان الفضل في الجمال يعود للأم التي ماتت منذ أمد. العيون عيون غزلان, والوجه أبيض مستدير, مشرب بحمرة ربانية, والأنف دقيق مستقيم, والفم وسطي تحوطه شفتين مكتنزتين, والشَّعر ليل مدلهم, والجسد رشيق ريان ينبض بالحياة.

عينا "طاهرة" مصلوبة على "فايز" المجالس أمه "جيهان", يشربان الشَّاي في الحديقة. الوقت صباح, والجو صحو, والعصافير الهاجعة بين أغصان شجرة الكافور انتفضت من سُبات اللَّيل, وانتشرت تغرد وتشدو بين شجيرات الحديقة, يشاركها أفواج بلابل وطيور مغردة تسكن أشجارًا سامقات بالبعيد على مرمى البصر, قد نداها الخير الوفير.

وطاهرة حذرة أن يراها الأب "ياسين", ترنو لما يتخطى حدود العقل, وإن استشعرت علمه بما يجيش بالصَّدر, قلبها يخبرها أنَّه يعلم خفقان ابنته الوحيدة, ويسبر المكنون والغور, وإن لم يتصارحا! نظرات عينيه تنطق بسرها الدَّفين!!

وما أن يستدير "ياسين", معاودًا الانهماك في تنظيف الزُّجاج, حتى تنفلت عينا "المها", تطير حيث مجلس الشَّاي, تُطوق الشَّاب المنهمك في الحديث مع أمه بنظرة عجائبية, ليست أبدًا نظرة الخادم لسيد!

وزجاج النَّافذة الواشي يعكس ما يدور في الخفاء, يتابع منه "ياسين" فعل ابنته, مُعتكفًا الصَّمت, متقمصًا دور تمثال نُحاسي لا يسمع ولا يرى.

"ياسين" واجف القلب, مهموم الخاطر, متبلد التَّصرف, يتابع عن كثب المنحى الَّذي تسلكه "طاهرة" منذ أمد, يتأرجح كما بندول بين الحكمة والنَّزق, ولا يدري أيزجر أم يرخي, متأكدًا من حتمية الوصول لنهاية من اثنتين: انقطاع عيش وطرد ومذلة, أو ثمرة الشَّهد يقطفها هنيئًا مريئًا.

يعلم يقينًا أنَّ جمال "طاهرة" ممَّا يُطيش العقل, ويستلب القلب, ويخطف الحواس, وبخلاف الأنوثة الطَّاغية, فهي جامعية, عام وآخر وتحصل على المؤهل العالي, ويومًا ستعمل في وظيفة مرموقة تنتشلهما معًا, لتنسى وينسى معها خدمة القصر, تصير ماضيًا له ولها. بيد أنَّ هذه أحلام البُسطاء, الحلم

في قلب "ياسين" ملتهب, أكبر من هذا بكثير, أشعلته "طاهرة" في قلبه ذات مساء, عندما وجد لوحة مخبأة بين أغراضها الدِّراسية, قد رسمت عليها سيده وسيدها "فايز", كأنَّه حي, بكل شبابه ورجولته ووسامته!! لحظتها دق ناقوس الانتباه, وبدأ يراقب ويترقب, ليكتشف, ويتكشف له؛ أنَّ ابنته "طاهرة" واقعة في غرام صاحب القصر حتى النُّخاع!

ولمَّا قبضوا عليه, ودخل آتون أمن الدَّولة؛ شعر بها تكاد تجن! تكظم نارها فلا تَفِح! بركان متأجج بالحمم لا يقدر على نفث ما في باطنه فيستريح! حينها تغافل كعادته, تمثال نحاسي لا يسمع ولا يرى, وعندما خرج "فايز" بعد حين من الدَّهر, تفجرت الحياة وتوهجت من جديد في قلب "طاهرة", شعر بها خلقًا غير الخلق, عادت حية بعد موات, تشربت أرضها مطر الحزن, وتفجرت من جوفها ينابيع السَّعادة, وغاض من عيني "المها" نهري الدَّمع.

ولا يعرف "ياسين", كيف امتلك الجرأة, وهذا القلب؛ ليترك ابنته الوحيدة تخوض هذه النِّيران, وهذه الدُّروب الملتوية الشَّائكة, وهو يعلم أنَّ السَّيدة الكبيرة إن اشتمت خبرًا بأمرها لقصفت روحها, وداستها, كما تقطف وردة يانعة وتدوسها بقدمها, غير مكترثة لتوسلات الجمال.

رغبة متمردة تُداعبه, عفية, أكبر من حكمة الأيام بداخله؛ أن تمتطي "طاهرة" فرس العشق, وتمتشق حسامه البتار, لتغزو قلب "فايز" الغض العفوي! يُغذي الأمل, ما توارد إليه من قصص حب, جعلت ملوكًا يتركون العرش, ونبلاء عريقون في الثَّراء يجثون تحت أقدام نساء من عامة الشَّعب.

وطاهرة جميلة, غاية في الجمال, و"فايز" مغاير, في جنباته تمرح نفسٌ غير نفس الأغنياء؛ بكبرهم, وشموخهم, وصلفهم, ونظرتهم الدُّونية لمن سواهم.. "فايز" في مُجملة, وفي كل تفصيلة من كيانه, من عجينة غيرهم؛ ما جعل شمعة الأمل تتراقص في قلب "ياسين", تلتمع في ذهنه ليل نهار!"

***

"فايز" هائم في العالم الافتراضي, موقع التَّواصل الاجتماعي الأشهر "الفيس بوك", يتابع الصَّفحات الأدبية, ومنشورات الأصدقاء, وتعليقاتهم. يقتحم الخلوة "عطية" فراش الشَّركة, ومن خلفه صديقه "حسام". يتهلل وجه "فايز"

بحب صادق, ويستهله "حسام" بالهجوم, متسعة شفتاه بابتسامة عريضة:

- بالتَّأكيد على "الفيس بوك"! ما دام الكمبيوتر المحمول بين يدك, وأنت تائه هكذا فأنت على "الفيس بوك"!

نهض "فايز" من مجلسه, ينتزع نفسه انتزاعًا من عالمه البعيد, وخطى يقابل صديقه, وتعانقا.

استمر "حسام" في هجومه:

- في القصر أجدك على "الفيس"! في الشَّركة على "الفيس"! ألا تمل يا "فايز" هذا العالم الافتراضي؟!

اتسعت ابتسامة "فايز", ولم يجد ما يقول, تابع "حسام":

- إلى متى هذا الافتراضي يا صديقي؟!

تمتم "فايز":

- الواقع هو ما يدفع إلى الافتراضي يا صاحبي!

- وهل "الفيس" هو الحل؟!

- العالم الافتراضي الَّذي يمنحه "الفيس", بديلًا جيدًا عن واقع لا تقدر أن تحياه وتتعايش معه.. في "الفيس بوك" أنت من تشكل عالمك الافتراضي بإرادتك, وتضع لبناته بنفسك, وفيه تقدر أن تتخير من البشر من تتعامل معه ومن ترفضه.

تنهد "فايز" تنهيدة حارة, وأردف:

- إحساسك بأنَّه ثمَّة من يستمع إليك في الطَّرف الآخر من العالم, تربطه بك فقط أواصر الإنسانية, دُونما أي اعتبارات أخرى, يمنحك شعورًا جميلًا جدًا يا "حسام", لا تعلم مدى احتياجي إليه!!

طار نظر "حسام" في أركان المكان, قبلما يهبط معاتبًا:

- أنظر ما أنت فيه يا صديقي! أنت في رغد من العيش في بلد الكل فيه يعاني! هل تستطيع في العالم الافتراضي أن تشيد شركة مثل هذه, ومصنعًا, وقصرًا؟! هل تقدر أن تركب سيارة مرسيدس آخر موديل؟! كما أنَّه لديك خادم يلبي طلباتك, ويرعى شئونك! حقًا الحال تبدل بعد وفاة السَّيدة الكبيرة, وخلا القصر سوى منك و"ياسين", ولكنك

تقدر أن تستعيد ما فاتك, لديك الشَّركة ولديك النُّقود, وأنت ما زلت شابًا, وتقدر أن تصنع الحياة التي تريدها!

ابتسم "فايز", تمتلئ عيناه بغبشة ضبابية:

- أنت أكثر من يعرفني يا صديقي! منذ متى والماديات لها كل هذا الاعتبار عندي!

وأطرق قليلًا, وأردف:

- أنا فقدت أهم شيء في حياتي يا "حسام"! فقدت الرَّوح! أنا خواء يعيش في خواء! وهمٌ يحيا في وهم! منذ ماتت أمي انقطع آخر خيط يربطني بالحياة! و"طاهرة" يا "حسام"! الفتاة الجميلة المشرقة! هل تظنني أقدر أن أنسي عينيها الجاحظتين الفارغتين من الحياة, وهي ترقد جثة هامدة محطمة! هل تظنني أنسي أنَّني كنت سببًا في نهايتها المأسوية؟!

والتمعت دموع اجتهد أن يكمدها, غير أنَّها أبت إلا أن تسيل على خديه حارة متأججة, وأشاح ببصره بالبعيد ليتمالك أنفاسه, ويستعيد رباطة جأشه.

"حسام" يدرك تمام الإدراك ما يجيش بصدر "فايز", بيد أنَّه يستفزه ليخرج المكبوت بصدره عله يستريح, فاستمر في هجومه, فيما يشير إلى الكمبيوتر المحمول بما يحمل من عالم افتراضي:

- وهل تتوقع أن تجد روحك هناك؟! بين بشر لا تعلمهم! الكل يلبس أقنعة, ولا تدري خلفها حمل أم ذئب, ملاك أم شرير, حكيم أم جاهل, مثقف أم مدعي, ليس العالم الافتراضي أبدًا هو البديل! واجه نكباتك يا صديقي ولا تهرب منها!

طفحت ابتسامة "فايز" تموج بالمرارة:

- أي نكبات أواجه؟! أداميتي التي تهشمت في أمن الدَّولة! الحزب الَّذي لفظني وأنا في محنتي بدلًا من الوقوف بجانبي! أقاربي الذين نكصوا من حولي! "طاهرة" التي كنت سببًا رئيسيًا في موتها! "ياسين" المفجوع, أرى الاتهام في عينيه طوال الوقت!

وهز رأسه وتنهد:

- تتكلم يا "حسام"، وكأنَّك لا تعرف ما جرى!

ربت "حسام" على كتفه:

- أعلم يا صديقي، أعلم! ولكنَّ بُغيتي أن تُحنكك التَّجارب ولا تُهشمك!
- حديثك هذا يذكرني بأمي رحمة الله عليها!

أخذ نفسًا عميقًا، ثُمَّ أشار إلى الكمبيوتر المحمول:

- لا فائدة.. لم يعد أمامي بديلًا غير هذا العالم الافتراضي!

قال "حسام" وفي صوته رنة عتاب:

- كان أمامك "الجماعة" التي رفضتها، وقد مدت يدها إليك!

هرب "فايز" بعينيه:

- لا داعي لنقاط الخلاف، فأنت آخر من أرغب في تعكر الصَّفو معه.

"حسام" بالأساس يتفهم "فايز" جيدًا، ولم يكن يريد لشيء أن يعكر صفو صداقتهما هو الآخر، فقال مداعبًا ليخرج من الجو المأساة:

- لديك الآن من الأصدقاء الكثير، فما الدَّاعي لأن تُبقي علي!

يتكلم وهو يشير إلى الكمبيوتر المحمول، قاصدًا الأصدقاء الافتراضين على مواقع التَّواصل الاجتماعي، وأردف:

- أخاف أن يتذمر أحدهم لتغيبك، فأجده يشرأب بعنقه، يوبخني ويكيل لي السُّباب.

ضحك "فايز"، يُغلق الكمبيوتر المحمول:

- لا تخاف. هم دمثاء الخلق، ذوي أخلاق عالية، يلتمسون الأعذار.
- أنت أدري بهم، فلا يعلم الافتراضي سوى أخيه الافتراضي.

وضحكا، ثُمَّ قال "فايز" موضحًا:

- قانون العلاقة نحن من نضعه، وإذا شذ أحدنا فالأمر بسيط، يستطيع أن يذهب بهدوء إلى حال سبيله، دُونما ضغينة، فلا مصلحة ولا منفعة بيننا، غير تبادل الأفكار والآراء.
- أستشعر إعجابك بهذا العالم العجيب يا صاحبي.
- هو عالم غرائبي، به الأخيار والأشرار، ولك أن تتخير ما يصلح لك، وتنبذ من لا يوفقك أو يعكر صفوك.

تبسم "حسام" وهو يقول:

- بالحجب والحذف وخلافه.

ابتسم "فايز" بدوره:

- الحجب والحذف أهون من الضَّغائن على كل حال.
- لي حساب على "الفيس"، ولكن لم يستهوني هذا العالم الوهمي.
- يا صديقي لابد لك من هدف، كي يحدث التَّواصل. شيء مشترك يجمعك مع الآخر. أنا مثلًا، وكما تعلم، أحب الأدب.
- نعم أتذكر، منذ الكلية وأنت غارق في هذا الأمر، أتذكر شخصية "جين آير" التي كنت مغرم بها للغاية.
- بل وأبعد من هذا الزَّمان بكثير، منذ وعيت للحياة وحبي للأدب والفن متغلغل في دمي، أبي "معتز" كان كذلك، والمكتبة العملاقة في جوف القصر تشهد على ذلك.. وربما نبتة الأدب غرست داخلي، منذ اللَّيالي التي كنت أستيقظ فيها ليلًا فأجده منهمكًا في الكتابة والقراءة في عزلة تامة عن الحياة!
- ولكن الأدب مارق يا صديقي، صفة التمرد كامنة فيه، فلا محرمات يعترف بها، ولا سقف يردعه.

مسَّد "فايز" على كتاب ضخم بالجوار، في حنوٍ بالغ، ورفعه في قدسية تامة، وكأنَّه يخاطب العدم:

- الأدب يستنطق الصَّمت وينبش في المسكوت عنه، بالفعل ليس لديه سقف ولا حدود، يخربش بأصابع دءوبة في عتمة الزَّوايا المهجورة، تلك الأماكن التي علق عليها العقل يافطة عريضة كتب عليها: "منطقة اليقين.. ممنوع الاقتراب أو التَّصوير".

فرقع "حسام" بإصبعيه:

- هذا ما قلت، وهذا اعتراضي عليه!

تابع "فايز" كأنَّه لم يسمع:

- الأدب لا يكترث لرهبة البشر في وطء منطقة اليقين، يخافون أن يدنسوها بجُرم التَّفكير! الأدب كاشف، باحث عن الحقيقة، يضع

اليقين والمحظور على طاولته, ويعمل فيه مبضعه, وكلما كان المبضع أكثر جرأة كلما كان أجدى وأنفع, والوصول لموطن الألم لابد حاصل.

- يا لفلسفاتك يا "فايز"! لم تتغير البتة!
- أتعلم لماذا يقف البعض منه موقف العداء؛ لأنه سيكشفهم, ويدحض قناعتهم, ويذرو ما يظنونه مسلمًا أدراج الرِّياح! يصفونه بالدَّاعر لأنه ينبش في دعارتهم ويكشفها, وبالفجور لأنه يكشف فجورهم ويعريهم أمام أنفسهم, وبالإلحاد والزَّندقة, لأنهم سيكتشفون على يديه مدى إلحادهم وزندقتهم, سيكتشفون مدى القبح المتغلغل فيهم! الأدب كاشف للقبح, نابش للفحش, باحث عن الحقيقة لمن أراد العلاج وأراد الوصول.
- تتحدث عن الأدب وكأنَّه نبي هبط من السَّماء لهداية البشر!
- هو كذلك, ما دام في النِّهاية سيرشدك ويأخذ بيدك.

يضحك «حسام» ساخرًا:

- يأخذك إلى أين؟!
- إلى الحقيقة!
- أي حقيقة وهو عدو الدِّين؟!
- من قال هذا؟!
- أنا من يقول.
- أنت مخطئ يا صديقي!
- الدِّين جوهره اليقين والتَّسليم, والأدب جوهره النَّبش والتَّعرية! فكيف يُسلم هذا لذاك؟!
- إن كان منتهى الدِّين هو اليقين والتَّسليم, فإن الأدب باحث مجد على طريق هذا اليقين.
- لن أصل معك لاتفاق!
- كما نحن دائمًا!
- سأقولها لك صراحة هذه المرة يا صديقي.
- كلي أذان صاغية.

- فيما يخص «الجماعة»، أنت لا تصلح فردًا فيها يا صديقي، أنت لا تعرف مسلمات، ولا تخضع لرأي يرفضه عقلك أو لا يستوعبه، و«الجماعة» لا تريد عقول على هذه الشَّاكلة، أمثالك مصدر قلق وتعب وإزعاج.

وضج بالضَّحك:

- وفتنة أيضًا.

ابتسم «فايز»:

- ها نحن متفقان هذه المرة.
- حسنًا دعك من هذا الآن، في الحقيقة أريدك في أمر!
- أعلم.
- هل أخبرك الأدب؟! هل نبشني وعراني وعلم حاجاتي وأخبرك؟!
- عيناك يا صديقي! عيناك أقرؤهما كما يقرأ الأدب نفوس البشر!
- أنت ابن مجد من أبناءه تمشي على الدَّرب.
- كم تحتاج يا صديقي؟
- المبلغ كبير هذه المرة، أنتوي الدُّخول في مشروع، وما أملك لا يفي بالغرض!!

ربت «فايز» على كتفه:

- قل يا صديقي، قل ولا تخجل.

أخرج «حسام» قلمًا وسطر المبلغ على ورقة إحراجًا. نهض «فايز» من فوره، واتجه إلى الخزينة الكبيرة الرَّابضة بالجوار:

- لا عليك يا صديقي!

وضع «حسام» المبلغ في الحقيبة، وقال فيما يستعد للمغادرة، وعلى شفتيه تراقصت ابتسامة ممتنة ودودة:

- علاجك يا صديقي ليس في العالم الافتراضي، ولا في الحزب، ولا في «الجماعة»، علاجك في شيء مختلف تمامًا، أنا على يقين أنَّه القادر على إصلاح حالك.

زوي «فايز» عينيه متسائلًا، فأجاب «حسام»، يلعلع بالضَّحك:

- أنت بحاجة لحب كبير, أن تُحِب وتُحَب, صدقني؛ الحب هو الوحيد القادر على تضميد جراحك.

***

في سيارتك الفاخرة, وعند منعطف الطَّريق, يتراءى لك المصباح الكبير على واجهة الشَّركة متلألئًا, فرحًا بالحياة, يضاهي ضوء الشَّمس جمالًا وبهجة, فيما تتهادى بحنو نحو المغيب. بالجو لسعة برد, ولكنه جميل, كل شيء جميل, الكون كله في عينيك جميل.

تتسلط عيناك على إشعاعات المصباح العفية, وقلبك يدق, ومشاعرك مضطرمة. أخيرًا ذقت الحب يا «فايز», وشعرت بطعمٍ للحياة جديد, طعم حلو, وصرت تتوق إليها, وتشغف بها, وأنت أنت الزَّاهد فيها دومًا.

«مها», هذا الملاك الَّذي اخترق حياتك بلا موعد, نسمة الصَّيف التي هبت وقت القيظ- على يديها تبدلت الحياة التي استشعرتها في وقت سالف بشعة لا تطاق, قبيحة بلا بهرج ذاب وتبخر, وأقنعة سقطت جميعها. تجدها الآن ترتدي مسوح الجمال والفتنة, لتغدو أبهى وأروع في عينيك من عيون النَّاس أجمعين.

«مها», السَّكرتيرة, ومع الأيام, تحولت لملاك يأسرك, يملأ حياتك, بديلًا عن أفكارك الاشتراكية البالية, وعالمك الافتراضي القديم!

تنتفض, تنفض ما يعتريك من أفكار لا تريدها في هذا التَّوقيت بالذات, تهمس لنفسك: عيش يومك, عيش لحظتك, تنفس الحب مع «مها», ذات الوجه الملائكي, والابتسامة العذبة, والضِّحكة الرَّائقة.

وجهها يناوشك في الأحلام, فلم يعد لك حلمًا سواه, يظهر ويتوارى في خلوتك, فتبتسم وتضحك بلا سبب معلوم, فتبدو كما المجنون.

عيناها التي برقت في ظُلمة حياتك, فأحالت ليلك المدلهم إلى نهار مبهر, وفرحة لا تسعها الأفاق, بعد كل انكساراتك وهزائمك, ونكبتك الكبرى في فقدك لأمك «جيهان», ومأساتك في المسكينة «طاهرة»!!

من قلب فرحتك, ينقبض قلبك, تغيض ابتسامتك, يتلون وجهك بطيف حزن, فأنت لم تعتد السَّعادة على هذا النَّحو, هذا الجموح, هذا التَّوهج, تستكثر

ما أنت فيه على نفسك, تظن في نفسك أنَّ الحياة في الأساس شحيحة معك, تضن بالسَّعادة عليك, وما أنت فيه محض وهم, مآله البخر والتَّلاشي! أو أنَّ الحياة, عدوك اللَّدود, غافلة عنك, ويومًا لابد منتبهة, وأخذه ما نالك من فرح في سهو وغفلة منها!

بيد أنَّك تشيح, لا تريد ما يعكر صفوك.

لا تصبر على وصول المصعد, تطير على الدَّرج, منتشيًا سعيدًا, تفتح «مها» باب الشَّركة بعد طرقات خافتة, هي تعرفها عن ظهر قلب, لا أحد غيركما هذا المساء, فاليوم إجازة, غير أن بعض ترتيبات العمل دفعتكما للحضور, وهذا أقصى ما تتمناه, أن تكونا وحدكما, بلا نسمة عابرة قد تمر بينكما.

تذيبك ابتسامتها فيما يشرق وجهها الصَّبوح! هذا الوجه ليس مكانه الأرض, الأرض لا تحتمل هذا البهاء!

لا تصبر شوقًا, تفكر في جملة تفتتح بها مجرى الحوار:

- لم تضيئين المصباح واللَّيل لم يدخل بعد؟

تبتسم لشغفك, تضحك منك؛ لأنَّك في أكثر من مرة ابتدرتها بذات التَّساؤل, وتنسى.

هي تعلم أنَّك لا تجيد المراوغة, وأنَّ الوصول لهدف ما, لا يحتمل في عُرف حياتك إلا الخط المستقيم, وهذا ممَّا تحبه فيك يا صاح.

تتذكر أنَّها قالت مرة؛ عندما نحب, يصيبنا نوعًا من العمى, لا نفرق فيه بين جمال وقبح, كما الأم تنظر فلذة كبدها, تراه أجمل من خطي على أديم الأرض.

"هل كانت تقصدك يا "فايز"؟!"

ترنو إليك بعينين براقتين, وما تلبث أهدابها الطَّويلة أن تنسدل, فتشعر وكأنَّ الدُّنيا تغيم!

- أتفاءل به يا أستاذ!

تتصنع الاستنكار, كما تصنعته مرارًا, وتنسى:

- وما دخل التَّفاؤل في الأمر؟!

جاهدة تحاول تمالك نفسها, تسايرك في ذات الحوار, كما فيلم سينمائي سرمدي بمشهد وحيد:

- يلفت نظر العملاء! يجذبهم إلى المكان!

تعلم أنَّك مدهوشًا ستتساءل, رافعًا حاجبيك الكثين: "وفاتورة الكهرباء؟!", ولا تُخيب ظنها مرة, فتقول مدهوشًا مرفوع الحاجبين:

- وفاتورة الكهرباء؟!

يروقها أن تأتي بنفس ردة الفعل وذات الإجابة؛ فتشيح بيدها في دله وتجيب:

- اتركها لله يا أستاذ! لا تحسبها هكذا!

تردد متبرمًا:

- أستاذ! أستاذ!

تلتفت إليك مداعبة, وعيناها تبرقان بذات البريق الأخاذ:

- أحب أن أناديك بأستاذ! أنت أستاذ! هذا اللَّقب منسجم معك, لائق عليك!

- أستاذ؟!

- ولو بيدي لقلت لك يا فيلسوف.

تضحك, وتستطرد:

- ولكنني أخاف أن يسخر مني الزَّملاء.

تضحك بدورك يا "فايز", وتقول:

- بل سيكون الفيلسوف هو موضع السُّخرية الأول.

ينساب فيض ضحكاتها العذبة, يردده المكان, وينتفض له قلبك, يخفق على أشده!

يخرج صوتك متلعثمًا, مضطربًا بالتَّردد:

- أكره هذه الألقاب, أريد أن أزيلها, أراها حاجزًا بيننا!

تلتمع عيناها بابتسامة ماكرة, تنسدل الأهداب الطَّويلة على العينين الشَّقيتين, يُخيل إليك أنَّ الظَّلام الدَّامس قد هبط مُخيمًا على الوجود.

تهز رأسها ببطء, بإيماءات تسحرك, تمط شفتيها وتقول:

- تؤ تؤ! هذا لا يصح!

ترفع حاجبيك متصنعًا الدَّهشة:

- لماذا؟!

- أنت رئيسي! وأنا لا أتجاوز الحدود مطلقًا!

تضحك ضحكة قصيرة ساخرة:

- لست أدري من يرأس من؟!

«يتردد صدى كلماتها النَّاعمة من ثنايا الذَّاكرة, قبلما ينقطع الطَّيف المجتاح:
«أنت طبعا الرَّئيس!»»

obeikandl.com